«السِّمْطُ الْعُرْفِيُّ النَّضِيرُ.. فِي مَوْلِدِ وَشَمَائِلِ النَّبِيِّ الْمُنِيرِ»

عادل علي العرفي - بنغازي - ٢٠٢٣

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، تَبَارَكَ الَّذِي أَزَاحَ بِمَوْلِدِ النُّورِ حَنَادِسَ الظُّلَمِ، وَأَنَارَ بِمَبْعَثِهِ مَعَالِمَ الْحِكْمَةِ وَالْكَرَمِ، وَبَعْدُ فَهَذَا مَوْرِدٌ عَذْبٌ مِنْ مَنَاثِيرِ اللُّغَةِ الشَّرِيفَةِ، نَسَجْتُهُ فِي مِحْرَابِ الْبَيَانِ الرَّفِيعِ، وَأَقَمْتُ صُرُوحَهُ عَلَى عُمُدِ الْمَعَانِي وَالْبَدِيعِ، أَسْمَيْتُهُ «مَوْلِدَ الْعُرْفِي» لِيَكُونَ مِرْآةً لِبَلَاغَةِ الْعَرَبِ فِي سَرْدِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ الزَّكِيَّةِ، بِأَلْفَاظٍ عَمِيقَةٍ وَمَعَانٍ دَقِيقَةٍ وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَقَدْ كَانَتِ الدُّنْيَا قَبْلَ إِشْرَاقِ نُورِهِ تَمُوجُ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ مِنَ الْجِهَالَةِ، وَتَعِيشُ تَحْتَ وَطْأَةٍ خَانِقَةٍ مِنَ الضَّلَالَةِ وَالْغَوَايَةِ، فَالْجَهْلُ ضَرَبَ أَطْنَابَهُ عَلَى الْقُلُوبِ، وَالظُّلْمُ أَسْدَلَ سُتُورَهُ عَلَى الشُّعُوبِ، حَتَّى انْشَقَّ فَجْرُ الْهُدَى عَنْ طَلْعَةِ الْبَدْرِ الْمُنِيرِ، وَأَضَاءَتْ بَطْحَاءُ مَكَّةَ بِسَنَا هَذَا الْمَوْلِدِ السَّعِيدِ الْمُجِيرِ، وُلِدَ الْحَبِيبُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَبَاشَرَتِ الْأَمْلَاكُ فِي السَّمَاوَاتِ، وَاهْتَزَّ إِيوَانُ كِسْرَى تَصْدِيعاً لِأَرْكَانِ الشِّرْكِ وَالْآفَاتِ، وَخَمَدَتْ نِيرَانُ فَارِسَ بَعْدَ أَنْ أَجَّجَهَا الْكُفْرُ زَمَاناً طَوِيلاً، ، جَاءَ رَبِيعُ الْأَوَّلِ فَرَبَعَتِ الْقُلُوبُ فِي رِيَاضِ الْأُنْسِ وَالْجَمَالِ، وَأَشْرَقَتْ شَمْسُ النُّبُوَّةِ فَمَحَتْ ظَلَامَ الرَّمْسِ وَالضَّلَالِ، يَا لَهُ مِنْ مَوْلِدٍ تَعَطَّرَتْ مِنْهُ أَرْجَاءُ الْوُجُودِ الرَّحِيبِ، وَتَسَابَقَتْ فِيهِ الْبَرَايَا لِشُكْرِ الرَّبِّ الْقَرِيبِ، نَشَأَ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَهْدِ الطَّهَارَةِ وَالْحِمَايَةِ، يَتِيماً فَآوَاهُ رَبُّهُ بِمَحْضِ الْفَضْلِ وَالْعِنَايَةِ، حَفِظَهُ مَوْلَاهُ مِنْ رِجْسِ الْأَحْلَافِ وَالْأَوْثَانِ، وَنَشَّأَهُ عَلَى الصِّدْقِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْإِحْسَانِ، رَعَتْهُ عَيْنُ الْقُدْرَةِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي بَنِي سَعْدٍ النُّجَبَاءِ، فَأَخْصَبَتْ لِأَجْلِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ الْجَدْبِ وَاللَّأْوَاءِ، دَرَّتْ ضُرُوعُ الشَّيَاهِ بِبَرَكَتِهِ لَبَناً سَائِغاً شَهِياً ، وَأَصْبَحَ قَحْطُ الْمَكَانِ بِوُجُودِهِ غَيْثاً رَوِيّاً، شُقَّ صَدْرُهُ الشَّرِيفُ بِيَدِ الْمَلَائِكَةِ الْأَبْرَارِ، فَمُلِئَ حِكْمَةً وَإِيمَاناً وَأَنْوَاراً فَوْقَ أَنْوَارٍ، وَنُزِعَ مِنْهُ حَظُّ الشَّيْطَانِ تَطْهِيراً وَتَزْكِيَةً، فَصَارَ لِلْهُدَى عُنْوَاناً وَلِلْحَقِّ تَرْبِيَةً، فَنَمَا شَبَابُهُ عَلَى أَكْمَلِ الْأَوْصَافِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَأَجْمَلِ الْخِلَالِ وَالشَّيَمِ الْمَرْضِيَّةِ، فَمَا عُرِفَ عَنْهُ إِلَّا الصِّدْقُ فِي

الْقَوْلِ إِذَا نَطَقَ، وَالْأَمَانَةُ فِي الْفِعْلِ إِذَا عَمِلَ وَاتَّسَقَ، لُقِّبَ بِالْأَمِينِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَكَانَتِ الْقُلُوبُ تَهْوِي إِلَيْهِ وَتَلِجُ مِنْهُ كُلَّ بَابٍ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَرْبَعِينَ مِنَ الْعُمْرِ الْمَيْمُونِ، جَاءَهُ الرُّوحُ الْأَمِينُ بِالنُّورِ الْمَكْنُونِ، فِي غَارِ حِرَاءٍ كَانَ التَّعَبُّدُ وَالتَّأَمُّلُ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ، فَهَبَطَ الْوَحْيُ لِيَبْدَأَ التَّشْرِيفُ وَرَفْعُ اللِّوَاءِ ، كَانَتْ «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ» مَفَاتِيحَ الدَّعْوَةِ الْعُظْمَى، لِتُنْقِذَ الْعَالَمَ مِنَ الضَّلَالَةِ وَالْعَمَى، قَامَ بِالرِّسَالَةِ صَابِراً مُحْتَسِباً رَغْمَ الْأَذَى وَالتَّكْذِيبِ، يُقَابِلُ الْجَفَاءَ بِالْإِحْسَانِ وَالصَّدَّ بِالتَّقْرِيبِ، دَعَا قُرَيْشاً إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ وَخَلْعِ الْأَنْدَادِ، فَوَاجَهُوهُ بِالْعِنَادِ وَالْجُحُودِ وَالْإِبْعَادِ، لَكِنَّ نُورَ اللَّهِ لَا يُطْفَأُ بِأَفْوَاهِ الْبَشَرِ، وَأَمْرُ الصِّدْقِ يَعْلُو وَلَوْ طَالَ السَّفَرُ ، ثُمَّ كَانَتِ الْهِجْرَةُ النَّبَوِيَّةُ الْمُبَارَكَةُ إِلَى طَيْبَةَ، حَيْثُ الْأَنْصَارُ وَالْقُلُوبُ الْمُنِيبَةُ، خَرَجَ مَعَ صِدِّيقِهِ يَسِيرَانِ فِي رِعَايَةِ اللَّهِ وَالْحِمَى، وَالْمُشْرِكُونَ يَقْتَفُونَ الْأَثَرَ بَغْياً وَعَمَى، نَزَلَا فِي الْغَارِ فَأَعْمَى اللَّهُ عَنْهُمَا أَبْصَارَ الطُّغَاةِ، وَحَمَتْهُمَا نَسْجُ الْعَنْكَبُوتِ وَحَمَائِمُ الْفَلَاةِ، وَصَلَ الْمَدِينَةَ فَاسْتَقْبَلَتْهُ بِبَشَاشَةٍ وَبِشْرٍ وَقَبُولٍ، وَأَشْرَقَ فِيهَا عَهْدٌ جَدِيدٌ يَبْهَرُ الْعُقُولَ، آخَى بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فِي لُحْمَةٍ وَإِخَاءٍ، لَمْ يَرَ التَّارِيخُ لَهَا مَثِيلاً فِي الصَّفَاءِ، مَنَحَهُ رَبُّهُ خَصَائِصَ لَمْ تُعْطَ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ، فَهُوَ صَاحِبُ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ وَالْحَوْضِ الْمَعِينِ، أُرْسِلَ لِلنَّاسِ كَافَّةً بَشِيراً وَنَذِيراً لِلْعَالَمِينَ، وَجُعِلَتْ لَهُ الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً لِلْمُصَلِّينَ، أُيِّدَ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ فِي صُدُورِ الْأَعْدَاءِ، وَأُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ فَبَهَرَ أَهْلَ الْفَصَاحَةِ وَالذَّكَاءِ، أَمَّا خُلُقُهُ الْعَظِيمُ فَقَدْ زَكَّاهُ رَبُّهُ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، حِينَ قَالَ «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» بِالْوَصْفِ الْعَمِيمِ، كَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ كَالرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ هَبُوباً، وَأَشْجَعَ النَّاسِ فِي الْمَوَاطِنِ لَا يَعْرِفُ نُكُوصاً وَلَا هُرُوباً، يَعْفُو عِنْدَ الْمَقْدِرَةِ وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ رَجَاءَ الثَّوَابِ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ وَيَفْتَحُ لِلصَّفْحِ كُلَّ بَابٍ ، مَا ضَرَبَ بِيَدِهِ شَيْئاً قَطُّ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ رَبِّهِ، وَمَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ بَلْ لِإِعْلَاءِ دِينِهِ وَحِزْبِهِ، وَأَمَّا صِفَاتُهُ الْخَلْقِيَّةُ فَقَدْ جُمِعَ فِيهَا كُلُّ بَهَاءٍ وَسَنَاءٍ ، كَانَ أَزْهَرَ اللَّوْنِ مَرْبُوعَ الْقَامَةِ شَدِيدَ الضِّيَاءِ، وَجْهُهُ يَتَلَأْلَأُ تَلَأْلُؤَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ الْفَاضِلِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ ، إِذَا تَبَسَّمَ أَفْتَرَ عَنْ مِثْلِ حَبِّ الْغَمَامِ الرَّقِيقِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَرَجَ النُّورُ مِنْ بَيْنِ ثَنَايَاهُ كَالْعَقِيقِ، أَمَّا مُعْجِزَاتُهُ فَتِلْكَ الَّتِي أَعْجَزَتْ عُقُولَ الْبَشَرِ، فَانْشَقَّ لَهُ الْقَمَرُ نِصْفَيْنِ إِشَارَةً بِأَحْسَنِ النَّظَرِ ، وَنَبَعَ الْمَاءُ الزُّلَالُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ النَّدِيَّةِ، فَأَرْوَى الْجَيْشَ الظَّامِئَ فِي الْمَوَاطِنِ الْقَوِيَّةِ، وَحَنَّ إِلَيْهِ الْجُذْعُ الْيَابِسُ حَنِينَ النَّاقَةِ الْوَلُودِ، لَمَّا فَارَقَهُ إِلَى الْمِنْبَرِ بَيْنَ شُهُودٍ، وَسَبَّحَ الْحَصَى فِي كَفِّهِ

الشَّرِيفَةِ تَسْبِيحاً صَرِيحاً، وَشَكَا إِلَيْهِ الْبَعِيرُ ضُرَّهُ فَأَنْطَقَهُ فَصِيحاً، وَأَعْظَمُ مُعْجِزَاتِهِ هَذَا الْقُرْآنُ الْبَاقِي عَلَى مَرِّ الدهر ، يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ إِلَى مَنَارِ النُّورِ، فَيَا سَيِّدَ السَّادَاتِ وَيَا خَيْرَ مَنْ مَشَى عَلَى الثَّرَى، وَيَا مَنْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ اقْشَعَرَّتْ مَظَالِمُ الْوَرَى إِلَيْكَ تَمُدُّ الْبَلَاغَةُ أَعْنَاقَهَا خَاضِعَةً لِعُلَاكَ، وَتَصْغُو الْفَصَاحَةُ تَعْظِيماً لِكَلَامِكَ وَسَنَاكَ، لَقَدْ جَمَعْتَ الْمَحَامِدَ كُلَّهَا فِي شَخْصِكَ الْقَوِيمِ، وَصِرْتَ لِلْعَالَمِينَ الْبَوَّابَةَ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ، فَسُبْحَانَ مَنْ أَنْشَأَكَ نُوراً وَجَعَلَكَ لِلْأَنْبِيَاءِ خِتَاماً، وَأَسْكَنَ مَحَبَّتَكَ فِي قُلُوبِ الْعَالَمِينَ إِجْلَالاً وَإِكْرَاماً، فَمَا يَقُولُ الْبَلِيغُ فِي مَدْحِ مَنْ زَكَّاهُ الرَّحْمَنُ، وَمَا عَسَى أَنْ يَخُطَّ بِمَحَامِدِكَ الْبَنَانُ وَالْجَنَانُ، أَنْتَ الشَّفِيعُ إِذَا ضَاقَتْ بِالْعِبَادِ كُلُّ الْأَحْوَالِ، وَأَنْتَ الْمَلَاذُ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ وَثَقُلَتِ الْأَحْمَالُ، عَلَيْكَ مِنْ صَلَوَاتِ اللهِ مَا تَعَاقَبَ الْجَدِيدَانِ، وَمَا تَرَنَّمَتْ بِفَضْلِكَ الْأَطْيَارُ فِي كُلِّ أَوَانٍ، وَنَخْتِمُ هَذَا الْمَنْثُورَ بِالصَّلَاةِ عَلَيْكَ بِصِيَغٍ عَمِيقَةٍ، تَلِيقُ بِمَقَامِكَ السَّامِي وَأَخْلَاقِكَ الْحَقِيقَةِ.

- اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، صَاحِبِ الشَّفَاعَةِ الْعُظْمَى، وَالْمَقَامِ الْأَسْمَى، مَنْ كَانَ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْهَبُوبِ، وَأَكْثَرَ النَّاسِ صَفْحاً عَنِ الْعُيُوبِ، حَمِيدِ الْفِعَالِ، جَمِيلِ الْخِصَالِ، مَنْ أَشْرَقَتْ بِمُعْجِزَاتِهِ الْأَرْضُ، وَقَامَ بِفَضْلِ دَعْوَتِهِ النَّقْلُ وَالْفَرْضُ.

- اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، نَبِي التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَكَاشِفِ الْغُمَّةِ عَنِ الْأُمَّةِ، مَنْ زَيَّنْتَهُ بِالْحَيَاءِ وَالْوَفَاءِ، وَخَصَّصْتَهُ بِالْإِسْرَاءِ وَالْعُرُوجِ إِلَى السَّمَاءِ، مَنْ حَنَّ إِلَيْهِ الْجُذْعُ شَوْقاً، وَسَعَى إِلَيْهِ الشَّجَرُ طَوْعاً، صَلَاةً تَشْفِي بِهَا الصُّدُورَ، وَتُيَسِّرُ بِهَا الْأُمُورَ.

وَفِي خِتَامِ هَذَا الْمَصْنَفِ، يَخِرُّ الْعَبْدُ الْفَقِيرُ سَاجِداً لِعَظَمَةِ اللَّهِ الَّذِي أَعَانَ وَيَسَّرَ وَفَتَحَ مِنْ أَبْوَابِ فَضْلِهِ مَا لَمْ يَكُنْ فِي الحِسْبَانِ، سَائِلًا الْمَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَتَقَبَّلَ هَذَا الْجُهْدَ بِقَبُولٍ حَسَنٍ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ خَالِصاً لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَمُوجِباً لِرِضْوَانِهِ الْأَعْلَى، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.